الصّوتُ الشعريّ

كمال سبتي

لا نملك في الشّعر العراقيّ الذي وُلِدَ بعد تجارب بدر شاكر السياب أصواتاً كثيرة .. نملك شعراءَ عديدينَ ، خرجوا من معطف بدر .. لم يستقلّ بصوته الشخصيّ ، في ما بعد ، الاّ عددٌ قليلٌ من الشعراء .. في ذهني الآن ثلاثةٌ ، تداخلت أصواتهم الشعرية في ما بينها كثيراً ، هم : عبد الوهاب البياتي وسعدي يوسف وحسب الشيخ جعفر ..

يبدأ السياب قصيدته البداية التالية ، الليل ، والسوق القديم
خفتت به الأصوات إلاّ غمغمات العابرين
وخطى الغريب وماتبث الريح من نغم حزين
ويبدأ البياتي قصيدته ، (سوق القرية) - لاحظوا العنوان - البداية التالية ،
الشمس ، والحمر الهزيلة ، والذباب
وحذاء جندي قديم
ويبدأ البياتي قصيدته ، (القرصان) - لسعدي قصيدة من الشعر العمودي ، بالعنوان ذاته ، وهي كتابه الشعري الأول ، وقد صدر عام 1952- البداية التالية ،
غليونه القذر الدمى والضباب ، وكوة الحان الصغير
ويبدأ البياتي قصيدته (الأفاق) البداية التالية ،
سكتت وأدركها الصباح ، وعاد للمقهى الحزين
ونثراً في القصيدة الرابعة (مسافر بلا حقائب) من بين شوائد عديدة فيها ،
مستنقع التاريخ والأرض الحزينة والرجال عبر التلال
هذا يعني ان البياتي قد جاء الى الشعر الحديث عندما كان السياب قد تجاوز قسطاً وافراً من رسالته ، ولنتذكر هنا أمراً آخر ، هو ان السياب قد كتب في عام 1954 قصيدته (أنشودة المطر) وهي من بحر الرجز ، ليدخل هذا البحر في الخدمة فعلياً حاله حال البحور الأخرى كالرمل والكامل والمتقارب والمتدارك .. الخ و(أنشودة المطر) تمثل مرحلة فنية متطورة في الشعر الحديث كما نعرف جميعاً ..
ويبدو سعدي في قصيدتيه اللتين نشرت إليهما سابقاً في الأولى وسيابياً وبياتياً في الثانية ، وللتدليل على بياتيته ، نقرأ من الثانية (تخطيط أولي عن حصار غرناطة) ، وهي قصيدة من بحر الكامل ،

(أغنيات ليست للآخرين) ،
رمياً ! وتنطلق السهام
رمياً ! ويسقط قائد الأعداء تسحقه الخيول
لكن ماذا لو ان سعدي كان قد كتب قصيدته هذه قبل أن يقرر البياتي دخول الشعر الحديث ؟ سنؤخر الجواب قليلاً ..
أما قصيدة (غضب حزين) التي هي من بحر الرمل فهي تعلن انتماء واضحاً الى بدر ، لا تعودي
لغضب البحر وجرحي والرياح
وفي هذه القصيدة يشدّ سعدي في التضمنية قليلاً عن غيره ، لكن لا أحد على حدّ علمي قد انتبه الى ما فعل ..
لنتنبه كيف تنتهي القصيدة ،
واحتواني العبر المظلم ، والنهر البخيل
شاحب الأمواج .. ألحان مضاء
ثم أغمضت عيوني
والرذاذ ..
فقد جاءت الرذاذ وحيدة بدون قافية شبيهة سابقة ، وفي الأعراف الشعرية لعام 1953 ، كان هذا الأمر خروجاً ما ..
انك لا ترى البياتي في هذه القصيدة ، لكنك كنت رأيته في القصيدة الأخرى والتي قد تكون سابقة على البياتي ! ..
سيكون لزاماً علينا هنا أن نتذكر على الدوام الصوت الأصل ، صوت بدر شاكر السياب التشظي في الشعراء .. وان البياتي الذي رأيناه في سعدي قبل أن يكتب البياتي شعراً حديثاً انما كان صوتاً متفرعاً من الصوت الأول ، صوت بدر ..
وينسحب الأمر ذاته الى حسب الشيخ جعفر .. الذي أخذ صوته الشعري من البياتي مباشرة .. نقرأه في قصيدة الكهف القديم (من الرمل) من ديوانه (نخلة الله) ،
أيها الكهف القديم
ها أنا أعوي على بابك كالذئب ، طريداً أستجير
ها أنا في نزع الروح الأخير
في يدي النار التي تنضج روحاً في لهيم
غير ان استغلاله سيتم لاحقاً عندما يبدأ الكتابة الشعرية الدورة ، نقرأه في الرباعية الأولى (وهي من الرجز) من ديوانه (الطائر الخشبي) ،
الزمن اليابس يا حبيبتي كالثلج في أصابعي . ارتجفت مثل الوتر الشدود في انتظار لون الثوب ، واستلكت في وجهك خفق الدورس الغريق . وارتحلت في نزالة اليدين حتى العروة الأخيرة . انكأت في الظل على الحناجة الشفاه . (هل أتركه ينصب كالجدول ؟) فرأ الشعر الثقيل كالنهر . الخ
لقد دوّر حسب الشيخ جعفر صوته المأخوذ مباشرة من البياتي ، فامتلكه مستقلاً بموهبة ومهارة شعريتين ، شخصيتين ..
نحن الآن هنا أمام حركة تنقلية للصوت الشعري الأول من شاعر إلى آخر .. لكنها حركة صعبة وقاسية .. فبمقدار ماتقتل التفرد الشخصيّ للشعراء وتجعلهم أشبه ببغاوات ترددصوت شاعر واحد فذ ، فإنها في الوقت نفسه قد تستقر في صوت شاعر بحنو وتأخذ بيديه لامتلاك صوته الشخصيّ لاحقاً كما حدث مع البياتي وسعدي وحسب .. عندما تتوفر الموهبة والمهارة الشعريتان ، الشخصيتان ..
لقد أتركت الحداثة الشعرية العراقية كل هذا وهي تشق الطريق الجديد في الشعر العراقي .. واحتفظت لهذه الأصوات بالتحية ، والاستذكار بما يشبه التكريم في كل خطوة خطتها وتخطوها في طريقها الطويل ..

لمحات من عبقرية وادي الرافدين

(لمحات من عبقرية وادي الرافدين) هو العنوان الذي سأنطلق منه في عرض هذا الكتاب الذي صدر باللغة الانكليزية عام 2001 عن دار الساقي ، من إعداد الفنانة العراقية ميسلون فرج . جاء هذا الكتاب جزءاً من مشروعها الكبير الذي يضم الى جانب هذا الكتاب معرضاً أقيم في غاليري بروناي Brunei Gallery في لندن وموقعاً للانترنت حملا اسم الكتاب نفسه . ميسلون فرج في تجربتها الراهنة انطلقت من لندن من دون أن تكون للمكان الجديد صلة قربى معها . فبين الهندسة المعمارية التي حصلت بها على بكالوريوس من جامعة بغداد عام 1978 ،

عرض : خالدة حامد

والاهتمامات الفنية بسبب علاقاتها الأسرية المتينة بفنانين عراقيين كبار مثل رافع الناصري وضياء العزاوي ومحمد غني حكمت وغيرهم ، وبسبب تتلمذها في الكلية على فنانين عراقيين كبار مثل نزيهة سليم (شقيقة النحات الكبير جواد سليم) وفرج عبو اللذين كانا يدرّسان في الكلية ، تحددت حقول اهتمام ميسلون فرج وتحددت معها ملامح مشروعها الكبير للتعريف بالفن العراقي المعاصر بمناخاته المتنوعة .
وإذا كانت تحاول ان ترد على محاولات الدارسين الغربيين لإغفال أثر العرب في الحضارة الإنسانية ، فإنها تسعى في الوقت نفسه إلى تعريف الأجيال الجديدة بأهمية تراثنا الإبداعي والحضاري . من هذا الوضع تحديداً بدأت ميسلون تتقصى هذه الأعمال وتسعى لإخراجها من خفائها وغيابها لتحقق غايتها بتعريف المتلقي الغربي بأثر هذه الحضارة التي امتدت قروناً طويلة ، مع الإشارة في الوقت نفسه إلى ما يقوله صاحب العمل الفني الأصلي الذي سيكون بديلاً عن أي ناقد أو منظر آخر في تقديم طروحاته ورؤاه الفنية التي يستند إليها عمله . من هنا فإن التجوال مع هذا الكتاب يأخذ مناحي واتجاهات عدة نظراً لغنى مادته (الفن العراقي المعاصر) وتنوعها من جهة ، ولتفردها في بعض الوقائع وريادتها وأصالتها من جهة أخرى.
أبدأ بملاحظة خاصة قد لا تكون غافلة على القارئ وهي أن طبيعة مثل هذه الكتب تثير صعوبات شتى لن يتصدى لها ترجع الى عدة أسباب منها أن التجربة تمتد الى ما يقرب من القرن ، وهي في تاريخها الطويل هذا لم تشهد خطاً مستقيماً في تطورها بل كانت تسلك طرقاً متعرجة تخللتها أعمال هي قمم تناثرت هنا وهناك . ومع ذلك ، لابد من الاعتراف بسلامة أسلوب هذا الكتاب على نحو ترد فيه الأشياء في عفوية على طول هذه الرحلة الغنية . من جانبها ، قامت الكاتبة بتعريف عملها الجديد بأنه " جهد يرمي إلى تقديم مرجع وافر لكل المهتمين بالفن العراقي المعاصر " . وإلى هذه الغاية نجدها سعت للإفادة من جهود متواصلة دامت خمس سنوات استثمرت فيها الكثير من المقالات والدراسات التي كتبها الفنانون أنفسهم للوقوف على مكانة أعمالهم الفنية ومضمونها على نحو يقود إلى معرفة المزيد عن تلك الخصوصية غير العادية المميزة لهذه الحقبة المكتنزة من الفن العراقي . ومع أن محاولة ميسلون لم تكن الأولى في هذا المجال ، إلا أن أهميتها تكمن في قدرتها على الإمساك بتفاصيل الحياة الفنية الدقيقة في تلك الرحلة من تاريخ العراق وكذلك براعتها في طرح فكرة التحقيب والأجيال الفنية التي يتم تسليط الضوء عليها عبر فصول الكتاب الخمسة التي تبدو ، رغم تباين عناوينها ، نصاً واحداً يقدم فيه المسهمون رؤيتهم للفن العراقي المعاصر بشكل خاص . وتمثل هذه الفصول الجزء الأول من الكتاب وتندرج على النحو الآتي :
في الفصل الأول " عرض تاريخي من بدايات القرن العشرين وحتى تسعيناته " تقدم أولريكا الخميس ، وهي أمين متاحف غالاسكو للفن والثقافة ، ومستشار معرض "لمحات من عبقرية وادي الرافدين " ، عرضاً تاريخياً موسعاً لتطور الفن العراقي الحديث على نحو تتجلى فيه الخلفية الضرورية لما يعرض من أعمال معاصرة . وتبين أن حركة الفن العراقي اتسمت عبر مراحل تطورها بمزيج من الحوار الثقافي والتنظير الفني والنقدي من جهة ، والاكتشاف والتجريب من جهة أخرى . وقد منحته هذه الخصيصة زخماً واتجاهاً مميزين ، وكيف أن محاولة الواشجة الفنية بين أشكال الفن العراقي التاريخية والحديثة قد أضفت على الشهد العراقي طابعاً خاصاً وهوية مميزة هي دليل النضج الفكري والفني.
أما الفصل الثاني " لورنا سليم تتذكر " فيمثل مقابلة شخصية مع لورنا سليم زوجة النحات الكبير جواد سليم تخص عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم ، واللذين يمثلان أكثر الفترات غنىً في تاريخ الفن العراقي الحديث . تستعرض لورنا ، أولاً ، لقاءها بالنحات الكبير جواد سليم في كلية سليد للفنون في لندن عام 1946 ، ثم تشرع بالحديث عن تفاصيل هذه الحقبة المهمة من الفن العراقي والتركيز بالدرجة الأساس على ما انجزه زوجها من أعمال منذ تأسيسه وترؤسه قسم النحت في معهد الفنون الجميلة في بغداد حتى وفاته.
ويمثل " الشتات والرحيل والبقايا " قراءة لرشاد سليم (ابن أخ جواد سليم) يستعرض فيها مختلف الظروف التي دفعت الكثير من الفنانين العراقيين الى مغادرة البلاد لينطلقوا من هناك في إنتاج أعمال جديدة تتسم بالعالمية لكنها تفصح في نفس الوقت عن أصالة جذورها . ويبين كيف أن الخاض الصعب الذي مر به هؤلاء الفنانون قادهم إلى رحلة صعبة من الاكتشاف الإبداعي الذي أمدهم برؤى جديدة ووعي بالذات .
وتستعرض الفنانة هناء مال الله (ذلك الامتداد الشرق لأستاذها الكبير شاكر حسن آل سعيد) في الفصل الرابع الذي يحمل عنوان " وعي العزلة " عقدي الثمانينيات والتسعينيات . وتركز الضوء على العزلة التي عاشها فنانو هذه الحقبة بسبب الحربين اللتين مرّ بهن العراق ، وكيف أن هذا الحدث منع الكثير من الفنانين من السفر الى الخارج لغرض الدراسة . وتتساءل الفنانة هناء مال الله : كيف تأتى لهؤلاء الفنانين إنجاز أعمالهم في ضوء التطورات الراهنة التي تركت بصماتها واضحة على الفن العراقي من دون وجود أي احتكاك مباشر مع العالم ؟ الحل يكمن ، برأيها ، بالعودة إلى الإرث الرافديني الثر .
وفي الفصل الخامس " لعبة الصخور الحرقفة بين التأسيس والتغيير " ، يقدم إبراهيم رشاد ، وهو موهبة فنية عراقية أخرى يعيش ويعمل في مالمو في السويد ، منظوراً واسعاً عن الفن العراقي الحديث ضمن سياق الفن العالمي عموماً.
ويتناول الجزء الثاني من الكتاب العرض الذي يضم ثلاثين فناناً . ومع أن العديد من العارض تناولت ثيمة الفن العراقي المعاصر في الكثير من بلدان العالم ، نجد أن قلة منها كان لها مثل هذا الاستعراض البانورامي لأعمال الجيل الشاب من الفنانين الموهوبين مثلما يفعل هذا الكتاب ويتجلى ذلك عبر الجزء الثالث من الكتاب في ما تنتقيه الحررة من ملاحظات ممتازة تعرف بالفنانين العراقيين ، سيرة وأعمالاً ، بدءاً بالمؤسسين مثل عبد القادر الرسام" (1882.1952) حتى الفنان الشاب عادل عابدين (من مواليد بغداد 1973) على نحو يثبت هوية الفنان وإنجازه ويضمن التعريف به على نطاق أوسع.
ومن الجدير بالقول أن العمل استثنائي حتى في تقنياته الطباعية وهو ما نلحظه على طول صفحات الكتاب البالغ عددها (229) صفحة من القطع الكبير التي ازدهت بكفاءة عالية في اللون والوضوح فجاءت مطابقة للأصل في روعته . ولا يقتصر الأمر على الصفحة الكتوبة فقط ، بل تزخر الصفحة البيضاء التي تغلفها بموتيفات رائعة.
إنها تقنية تفصح عن براعة في الرؤية حقاً

المثقف العربي
بين سلطتين

د . خزعل الماجدي

ليس هناك ما هو أقسى من غربة المثقف العربي ومأزقه في هذا الزمن العربي الرديء .. فهو أعزل الا من جمرة الحرية التي يحملها في قلبه .. ومن يدري ؟ فقد لا تقاوم هذه الجمرة شتاء الحياة العربية وقد تنطفيء في أية لحظة . لقد حاولت الحياة العربية المعاصرة تهميش المثقف وابعاده عن مجريات الأحداث الكبرى التي يعيشها شعبه وبلده ، وكلما حاول أن يدلي بدلوه لم يجد ماءً في البئر بل أن هناك من يتربص به أو يسخر منه أو يجعله يعيش مشاكل لا قبل له بها . يواجه المثقف العربي سلطتين قاسيتين تراقبان وعيه وابداعه هما السلطة السياسية والسلطة الدينية .
السلطة السياسية هي سلطة الدولة التي تريد الحفاظ على كيانها من أي نقد أو خدش والتي ترى أنها ولدت كاملة مكملة ، ولأن سلطاتنا العربية لا ترى في النقد الموجه لها سبيلاً للانتعاش والنمو وتصحيح الأخطاء فهي تنظر بعين الريبة والشك والتخوين للمبدع العربي الجريء الذي يحاول تعرية أخطاء هذه السلطة وموجهاتها الستراتيجية التي تحذر الجميع من اختراقها بشكل مباشر أو غير مباشر إلا أنها لا تتوانى عن الضرب بقوة لكل من يوجه لها نقداً جريئاً ، ولذلك فر المثقفون العرب إلى المنافي تلافياً للاعتقال والقسر والحصار أو وضعوا في السجون عندما اصطدموا بالسلطة مباشرة .
السلطة السياسية صلبة جامدة لا تتفاهم .. وهي متجهمة أو عابسة دائماً وإن كانت تلين أحياناً وتبتسم ابتسامة صفراء للعقول المتوقدة المبدعة التي تحاول اصطيادها وتأشير أخطائها .. لكنها لا تتوانى عن فعل أي شئ ضد المثقف العربي ، وإذا أرادت أن تظهر ترفعاً مفتعلاً على المبدع وطروحاته فإنها تحرك ذيولها المأجورة لكي تحاصر المبدع .
يتحرك المبدع وفق قوانين جذرية للنقد والإصلاح ولا يحاول مطلقاً تقويض الدولة فهو يؤمن أن لا إصلاح إلا من خلال الدولة (والدولة هي غير الحكومة) والمؤسسات الاجتماعية ، لا يجوز في جميع الأحوال تخطي دور الدولة ، لأنها وسيلة كل الحكومات للتقدم والنمو ، ولكنه يطمح أن تكون هذه الدولة من المرونة بحيث تتحرك برشاقة أمام معطيات وتغيرات الحياة لا أن تكون مثل ترسانة جاثمة على الصدور .
المثقف لا يطالب بتقويض الدولة بل بتحسين شروطها السياسية وسلوكها اليومي المتعلق بحرية الناس في التغيير والتمثيل . أما السلطة السياسية فترى في هذا المثقف عدواً لها وقد تراه نواة لحركة منظمة مضادة لها .
لا يجوز للمثقف العربي مهما كانت مرونة السلطة السياسية معه أن يتخلى عن أسلحته النقدية لكي يكشف بها الممارسات الخاطئة للسلطة لأن وظيفته هي في فضح الأخطاء دائماً ، أخطاء الدولة وأخطاء المجتمع وأخطاء الفرد والحياة والسلوك . وقد لا يكون المبدع وهو يمارس دوره هذا سياسياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لأنه أكبر من المقتربات الضيقة للسياسة ، إنه ينطلق من الوعي العميق للحياة .. لا من الوعي السياسي الوضوع لها . أسلحة المثقف تنويرية ناقدة تخاطب العقول والقلوب وأسلحة السلطة السياسية ، في وطننا العربي ، قمعية وترقيعية لحجب الأخطاء لا لمعالجتها . ولم تشهد الحياة الثقافية تناغماً في عملها مع أداء السلطات السياسية هذا إذا استثنينا ما يقوم به أصناف المثقفين الموالين والمطبلين للسلطة السياسية .
أما السلطة الأخرى التي تقف بعنف بوجه المثقف العربي فهي السلطة الدينية (ولا أقول الدين) بل السلطة الدينية التي هي سلطة تتدرع بالشرع الحلال والحرام والحسبة والتكفير وغيرها . ففي كل المجتمعات العربية هناك من يتبرع بالدفاع عن القيم الدينية لا من خلال منطلقات دينية سمحاء بل من خلال سلطة دينية توازي السلطة السياسية ولكنها تتخذ من الدين والمجتمع منطلقاً لها تحاول ابتزاز قوانين الدولة لصالحها تحت ذريعة الدفاع عن الدين وقيمه .
يكون الصدام بين المثقف والسلطة الدينية مختلفاً عنه مع السلطة السياسية ، إذ يتم تصيّد واقتطاع بعض جمل وعبارات المبدعين والمثقفين التي وردت في أحاديثهم وكتبهم ومقالاتهم وتأويلها قسراً وجعلها تنطق بالكفر والانحراف عن الدين ثم يصار إلى تكفير هذا المثقف وملاحقته وربما هدر دمه . التنوير الذي يحاوله المثقف أو المبدع العربي لا ينطلق من هدم العتقدات الدينية ، كما يحلو للسلطة الدينية تصوير ذلك ، بل هو أقرب إلى النقد البناء الذي يطول المارسات الدينية الخاطئة أو أنه محاولة لقراءة جديدة لآراء أو فترات سابقة أو أنه تحليل علمي لقضية ما لكنه يفهم من قبل السلطة الدينية على أنه مسّ بالدين وهدم له . إن التهديد بالعنف الشرعي والعنف الاجتماعي ضد المثقف لا يدل إلا على الجهل وممارسة الجهل بالقوة فبدلاً من تعليم المجتمع وتنويره وبدلاً من عرض الحقائق كاملة على الناس وبدلاً من محاولة سد الهوة الحضارية بيننا وبين الأمم التي من حولنا . تعمد السلطة الدينية على تدمير مثقفينا واجتثاثهم من مجتمعاتهم .
لقد شهدت الحياة الثقافية العربية في سنواتها الماضية الأخيرة أنواعاً كثيرة من العنف الذي مارسته السلطتان السياسية والدينية مثل ما حصل لنجيب محفوظ ونصر حامد أبو زيد في مصر ومارسيل خليفة في لبنان وممدوح عزام وحيدر حيدر في سورية وليلى العثمان وعالية شعيب في الكويت ومثل ما حصل مع الكتاب والأدباء العراقيين الذين فروا إلى المنافي منذ عقود بعيداً عن عسف السلطة وضيق أفقها .
لقد تحول نقد النصوص وتأويلها إلى عصاب عقائدي ديني / سياسي ولا شك أن منظومة الأخلاق والذوق العام والدين وقيم المجتمع هي العناوين التي وضعت تحتها تأويلات هذه النصوص .
إن نصوص الأدب مثلاً تستدعي الكثير من التأويلات والتفسيرات بسبب طبيعتها الإبداعية المرنة ولكنها قد تقع فريسة للتأويلات السياسية والدينية أو قد تتجاوز جرأتها المنوعات العروفة . المثقف العربي محاصر الآن بين سلطتين ربما كانتا على اختلاف في أمور كثيرة لكنهما على اتفاق دائماً في محاصرة الإبداع والثقافة أو التلويح بهذه المحاصرة .. وهكذا ظهر لنا المثقف والمبدع والأديب العربي بعد أكثر من نصف قرن من هذه العلاقة المشوهة بينه وبين هاتين السلطتين وكأنه كسير الجناح يلفه الخواء ولا يغريه المستقبل . وهذا يعني أنه وضع على هامش الحياة اليومية لمجتمعه وشعبه ولم تعد هناك ضرورة للرجوع إليه أو الاستئناس برأيه أو .. أو .
فهل انتهى دور المثقف العربي أم أنه سيبدأ من جديد بعد مرحلة فضح الإجراءات التعسفية ضده والتي بدأت إمارتها تلوح ؟